

سورة الذاريات

مكية وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ ① ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ ② ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ③ ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ ④ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ ⑤ ﴿وَأَنَّ الدِّينَ لَوْفٌ﴾ ⑥ ﴿

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح لأنها تذر التراب وغيره. قال الله تعالى: ﴿تَذُرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥] وقرئ بإدغام التاء في الذال ﴿فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا﴾ ② السحاب، لأنها تحمل المطر. وقرئ: «وقرًا» بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر. أو على إيقاعه موقع حملاً ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ③ الفلك. ومعنى (يسرًا): جرياً ذا يسر، أي ذا سهولة ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ ④ الملائكة، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد: تتولى تقسيم أمر العباد: جبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة. وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ. وعن علي رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: سلوني قبل أن لا تسألوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: ما الذاريات ذرؤاً؟ قال: الرياح. قال: فالحاملات وقرأ؟ قال السحاب. قال: فالجاريات يسراً؟ قال: الفلك. قال فالمقسمات أمراً؟ قال: الملائكة (١٤٩٨) وكذا عن ابن عباس

١٤٩٨ - رواه الحاكم في المستدرک (٢/ ٤٦٦ - ٤٦٧)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ١. هـ.

ورواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٤١)، وابن جرير في تفسيره (١١/ ٤٤٢) رقم (٣٢٠١٦). وروى البزار في مسنده رقم (٢٢٥٩ - كشف) حدثنا إبراهيم بن هانئ ثنا سعيد بن سلام العطار ثنا أبو بكر بن أبي سيرة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: جاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن «الذاريات ذرؤاً» قال: هي الرياح، ولولا أنني سمعت رسول الله عليه وسلم - يقوله ما قلته قال: فأخبرني عن: «الحاملات وقرأ» قال: هي السحاب. فذكر حديثاً طويلاً.

وعزه الزيلعي (٣/ ٣٦٦) لابن مردويه في تفسيره، من حديث عبدالله بن موسى: عن ابن أبي سيرة به سنداً ومثلاً، وقال الحافظ ابن حجر في تخرجه الكشف:

أخرجه الحاكم والطبري وغيرهما من رواية أبي الطفيل قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله =

(١٤٩٩). وعن الحسن (المقسمات) السحاب، يقسم الله بها أرزاق العباد، وقد حملت على الكواكب السبعة، ويجوز أن يراد: الرياح لا غير؛ لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه، وتجري في الجو جرياً سهلاً، وتقسم الأمطار بتصرف السحاب. فإن قلت: ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قلت: أما على الأول فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح، فبالسحاب الذي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه. وأما على الثاني، فلأنها تبتدىء بالهبوب^(١)، فتذروا التراب والحصباء، فتنتقل السحاب، فتجري في الجو بأسطة له فتقسم المطر ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم، وما موصولة أو مصدرية، والموعود: البعث. وواعد صادق: كعيشة راضية. والدين: الجزاء. والواقع: الحاصل.

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُوبِ﴾ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنَ أُوْكَ ﴿٩﴾

﴿الْحُبُّوبُ﴾ الطرائق، مثل حبك الرمل والماء: إذا ضربته الريح، وكذلك حبك الشعر: آثار تشبهه وتكرسه. قال زهير [من البسيط]:
مُكَلَّلٌ بِأَصُولِ النُّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيْقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُّكَ^(٢) ١٩٦/٢ باب

== عنه - على المنبر فذكره، وزاد فيه: قال: «فمن الذين بدلوا نعمة الله كفراً؟ قال: هم منافقو قريش»، وفي الباب عن عمر مرفوعاً أخرجه البزار، وفيه قصة منبع، وقال ابن أبي سبرة: لين الحديث، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث أ. هـ. ولم ينفرد به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبي سبرة أيضاً. انتهى.
١٤٩٩ - رواه الطبري في التفسير (٤٤٢/١١) رقم (٣٢٠٣٣) حدثني محمد بن سعد قال: ثنى أبي قال: - ثنى عمي قال: ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله «فالحاملات وقراً» قال: السحاب قوله: «فالمقسمات أمراً». قال: الملائكة» أ. هـ.

(١) قوله: «فلأنها تبتدىء بالهبوب» لعله: فإنها. (ع)

(٢) حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحي مائه حبك
كما استغاث بسبيء فر غبطله خاف العيون ولم ينظر به الحشك

لزهير: يصف قطرة فرت من صقر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له، أي: لا حبل يستقي به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح، أي: في الأمكنة المتسعة المستوية؛ فإن أراد من الماء مكانه؛ فمن بيانية، في حافاته أي جوانبه البرك جمع بركة، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل ذلك الماء بأصول النجم، أي: النبات الذي لا ساق له. وروي بعميم النجم، أي: طويله، تنسجه: أي تشبهه تشبه تشبيهاً منتظماً كالنسج، فهو استعارة مصرحة. والخريق - بالقاف -: الباردة والشديدة البر. والضاحي: الظاهر. والحبك: الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح. جمع حباك أو حبيكة. =

والدرع محبوبكة؛ لأنّ حلقها مطرّق طرائق. ويقال: إنّ خلقه السماء كذلك. وعن الحسن: حبكها نجومها. والمعنى: أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي. وقيل: حبكها صفاقتها وإحكامها، من قولهم: فرس محبوبك المعاقم^(١)؛ أي محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا: ما أحسن حبكه، وهو جمع حبك، كمثال ومثل. أو حببكة، كطريقة وطرق. وقرئ: «الحبك» بوزن القفل. والحبك، بوزن السلك. والحبك، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل ﴿إِنَّا لَنِي قَوْلٍ نَّحْنِبِ﴾^(٢) قولهم في الرسول: ساحر وشاعر ومجنون، وفي القرآن: شعر وسحر وأساطير الأولين. وعن الضحاك: قول الكفرة لا يكون مستويًا، إنما هو متناقض مختلف. وعن قتادة: منكم مصدّق ومكذب، ومقرّ ومنكر ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ﴾ الضمير للقرآن وللرسول، أي: يصرف عنه، من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه^(٣) وأعظم؛ كقوله: لا يهلك على الله إلا هالك. وقيل: يصرف عنه من صرف في سابق علم الله، أي: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين: أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه، فمنهم شاك، ومنهم جاحد. ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر: وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله في قوله [من السريع]:

يَنْهَوْنَ عَنْ أَكْلِ وَعَنْ شَرْبِ^(٣)

= والسيء بالفتح وبالكسر: اللبن في طرف الثدي. والفز: ولد البقرة الوحشية. والغيطلة: الشجر الملتف؛ فإضافة الفز إليها لأنه فيها. وقيل: هي البقرة الوحشية. والعيون هنا: رباء الصيد وجواسيسه. وحشكت الدرة باللبن حشكًا وحشوكًا: امتلأت به. وحرك الحشك هنا للضرورة، أي: لم ينتظر به امتلاء الدرة، ولعمري نعمت هذه الاستغاثة. وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنًا. ينظر: ديوانه ص ١٧٦، ولسان العرب (نسج)، (خرق)، (حبك)، (نجم)، وجمهرة اللغة ص ٢٨٣، وأساس البلاغة (حبك)، وتاج المروس (نسج)، (حبك)، (نجم)، وبلا نسبة في المختصص ١٤٩/٩.

(١) قوله: «فرس محبوبك المعاقم» في الصحاح: المعاقم من الخيل: المفاضل، فالراسخ عند الحافر معقم، والركبة معقم، والمرقوب معقم. اهـ. (ع)

(٢) قال محمود: «يصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه... إلخ» قال أحمد: إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر من قبل أنك إذا قلت: يصرف عنه من صرف، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغني عن قولك من صرف، لأنه بمجرد كالتكرار للأول، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارًا، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف، أفهم أن غيره لم يصرف، فكانك قلت: لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا، وكل صرف دونه فكلًا صرف بالنسبة إليه، والله تعالى أعلم.

(٣) ينهون عن أكل وعن شرب مثل المها يرتعن في خصب =

أي: يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته: يصدر تناهيهم في السمن عنهما، وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير: يؤفك عنه من أفك، على البناء للفاعل. أي: من أفك الناس عنه وهم قريش، وذلك أن الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأي ليسأل عن رسول الله ﷺ، فيقولون له: احذره، فيرجع فيخبرهم. وعن زيد بن علي: يأفك عنه من أفك، أي: يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه. وعنه أيضًا: يأفك عنه من أفك؛ أي: يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرئ: «يؤفن عنه من أفن» أي: يحرمه من حرم، من أفن الضرع إذا نهكه حلبًا.

﴿قُلِ الْخَرَّاصُونَ ۝۱۵﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهَوَتْ ﴿۱۱﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿۱۲﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿۱۳﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿۱۴﴾

﴿قُلِ الْخَرَّاصُونَ ۝۱۵﴾ دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسُ مَا أَكْفَرُوا ۝۱۷﴾ [عبس: ١٧] وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى: لعن وقبح. والخراصون: الكذابون المقفرون ما لا يصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم، كأنه قيل: قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ: «قتل الخراصين» أي: قتل الله ﴿فِي غَمَرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم ﴿سَاهَوَتْ﴾ غافلون عما أمروا به ﴿يَسْتَلُونَ﴾ فيقولون: «أيان يوم الدين» أي متى يوم الجزاء؟ وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة. فإن قلت: كيف وقع أيان ظرفًا لليوم، وإنما تقع الأحيان ظروفًا للحدثان؟ قلت: معناه: أيان وقوع يوم الدين. فإن قلت: فيم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلت: بفعل مضمر دلّ عليه السؤال، أي: يقع يوم هم على النار يفتنون، ويجوز أن يكون مفتوحًا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة. فإن قلت: فما محله مفتوحًا؟ قلت: يجوز أن يكون محله نصبًا بالمضمر الذي هو يقع؛ ورفعًا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع ﴿يُقْتَنُونَ﴾ يحرقون ويعذبون. ومنه الفتين: وهي الحرة؛ لأن حجارته كأنها محرقة ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ في محل الحال، أي: مقولاً لهم هذا القول ﴿هَذَا﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي﴾ خبره، أي: هذا العذاب هو الذي ﴿كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ﴾ ويجوز أن يكون هذا بدلًا من فتنكم؛ أي: ذوقوا هذا العذاب.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝۱۵﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ذَلِكَ مُتَحِيزِينَ ﴿۱۶﴾ كَانُوا

يُقال: نهى الجمل فهو ناه، إذا فرط في السمن. والمها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية. ويقال: أخضب المكان فهو مخضب، وأخضبه الله. وخضب خصبًا، كتعب تعبًا، وعلم علمًا: إذا كثر كلاه ونباته. يصف أضيافًا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلاء، فالخضب في الأصل: مصدر سمي به الكلاء.

قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا اسْتَبَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم راضين به، يعني أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضي غير مسخوط، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي يقبلها ويرضاها ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم، وتفسير إحسانهم ما بعده ﴿مَا﴾ مزيدة. والمعنى: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلاً ظرفاً، ولك أن تجعله صفة للمصدر، أي: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة؛ على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بـ «قليلاً» على الفاعلية^(١). وفيه مبالغات لفظ الهجوع، وهو الفرار من النوم^(٢). قال [من السريع]:

قَدْ حَصَتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعٍ^(٣)

(١) ذكر الزمخشري فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلاً ظرف منتصب بيهجعون، أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو تكون (ما) مصدرية أو موصولة على: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم. أو ما يهجعون فيه، وارتفاعه بقليلاً على الفاعلية قال أحمد: وجوه مستقيمة خلا جعل (ما) مصدرية، فإن قليلاً حينئذ واقع على الهجوع، لأنه فاعله. وقوله: (من الليل) بياناً للقليل ولا بياناً له، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه، ولا كذلك على أنها موصولة، فإن قليلاً حينئذ واقع على الليل، كأنه قال: قليلاً المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل، فلا مانع أن يكون (من الليل) بياناً للقليل على هذا الوجه، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج. وقد رد الزمخشري أن تكون ما نفعاً وقليلاً منصوب بيهجعون على تقدير: كانوا ما يهجعون قليلاً من الليل، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي عليه. قلت: وفيه خلل من حيث المعنى، فإن طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود. ثم قال: وصفهم بأنهم يحيون الليل متهمجين، فإذا سحرُوا شرعوا في الاستغفار. كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. قال: وقوله: (هم) معناه: هم الأحقاء بالاستغفار دون المصيرين. قال: وفي الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم. قال: وقوله: (قليلاً) وقوله: (من الليل) لأنه وقت السبات. قال: ومنها زيادة ما في بعض الوجوه. قلت: وفي عدها من المبالغة نظراً؛ فإنها تؤكد الهجوع وتحققه، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل.

(٢) قوله: «وهو الفرار من النوم» في الصحاح: الفرار بالكسر: النوم القليل اهـ. (ع)

(٣) قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع

أسمى على جل بني مالك كل امرئ في شأنه ساع

لقيس بن الأسلت. وحصت: أهلكت أو حلفت، البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب، أي حلفت شعر رأسي من دوام لبسها للحرب. وشبه النوم بالمطعم لاستلذاذ مبادئه على طريق المكنية، وأطعم: أي أتناول تخييل لذلك والتهجاع: التغافل قليلاً لطرد النوم؛ فالاستثناء منقطع. =

وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ و﴿يَنَ أَيْلٍ﴾ لأن الليل وقت السبات والراحة، وزيادة ﴿مَا﴾ المؤكد لذلك: وصفهم/ ١٩٧/٢ بأنهم يحيون الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وقوله: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصيرين، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطناهم فيه. فإن قلت: هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم، وأن يكون المعنى: أنهم لا يهجعون من الليل قليلاً، ويحيونه كله؟ قلت: لا، لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. تقول: زيداً لم أضرب، ولا تقول: زيداً ما ضربت: السائل: الذي يستجدي ﴿وَالْمَحْرُورِ﴾ الذي يحسب غنياً فيحرم الصدقة لتعففه. وعن النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترذه الأكلة والأكلتان واللقمة واللقمتان والتمرنة والتمرنة» قالوا: فما هو؟ قال: «الذي لا يجد ولا يتصدق عليه» (١٥٠٠) وقيل: الذي لا ينمي له مال. وقيل: المحارف^(١) الذي لا يكاد يكسب.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠) ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١)

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتديره حيث هي مدحوة كالسباط لما فوقها كما قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها، وهي مجزأة: فمن سهل وجبل وبر وبحر. وقطع

١٥٠٠ - رواه البخاري (١٠٤/٤) كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: «لا يسألون الناس إلحافاً» الحديث (١٤٧٩) ومسلم (١٣٩/٤) كتاب الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى، الحديث (١٠٣٩). وأبو داود (٥١٣/١) كتاب الزكاة، باب: من يعطي من الصدقة وحد الغنى، الحديث (١٦٣١). والنسائي (٨٥/٥) كتاب الزكاة، باب: تفسير المسكين، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. انتهى.

= وجلهم: مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم. وروي: على جبل بني مالك، وعليه فشبه العهد بالجبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحة، أي: أسمى في شأني متمسكاً بعهدهم، وعلى الأول فقلوه: «كل امرئ في شأنه ساع» فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم، وأنه شأنه.

ينظر: ديوانه ص ٧٨، ولسان العرب (حصص)، (هجع)، وتهذيب اللغة، وجمهرة اللغة ص ٩٨، ومجمل اللغة ١٤/٢، وديوان الأدب ١٢٦/٣، وتاج العروس (حصص)، ٣٨٤/٢٢ (هجع)، وشرح اختيارات المفضل ص ١٢٣٦، وبلا نسبة في كتاب العين ١٤/٣، ومقاييس اللغة ١٣/٢، والمختصص ٧٠/١ وأساس البلاغة (هجع).

(١) قوله: «وقيل المحارف» في الصحاح: رجل محارف، بفتح الراء: أي محدود محروم، خلاف قولك: مبارك اهـ. (ع)

متجاورات: من صلبة ورخوة، وعذاء^(١) وسبخة؛ وهي كالطروقة تُلَقَّح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد ﴿رَبِّهِمْ﴾ بعضها على بعض في الأكل ﴿[الرعد: ٤]﴾ وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والذواب المنبثة في بَرِّها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال: من الوحشي والإنسي والهوام، وغير ذلك ﴿الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وإيقاناً إلى إيقانهم ﴿وَوَيْلٌ لِلْأَفْسَكِ﴾ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق: ما تحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها: من الآيات الساطعة والبيئات القاطعة على حكمة المدبر، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني. فإنه إذا جسا^(٢) شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَيْلٌ السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿وَيْلٌ السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ هو المطر؛ لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير: هو الثلج وكل عين دائمة منه. وعن الحسن: أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة: هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش. أو أراد: أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدّر مكتوب في السماء. قرئ: «مثل ما» بالرفع صفة للحق، أي حق مثل نطقكم، وبالنصب على: إنه لحق حقاً مثل نطقكم. ويجوز أن يكون فتحاً لإضافته إلى غير متمكن. وما مزيدة بنص الخليل، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق، كما أنك ترى وتسمع، ومثل ما إنك ههنا. وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي ﷺ؛ أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعي: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام

(١) قوله: «وعذاء» في الصحاح «العذاء»: الأرض الطيبة التربة، والجمع عذوات. (ع)

(٢) قوله: «إذا جسا» أي إذا جسد، أي إذا جسد منها في الصحاح: جسد البلد وغيرها جسوراً وجسداً: يست أحد. (ع)

الرحمن. فقال: اتل عليّ، فتلوت ﴿وَالَّذِينَ﴾ فلما بلغت قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رُزُقَكُمْ﴾ قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحراها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى، فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: فورت السماء والأرض إنه لحق، فصاح وقال: يا سبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؛ قالها ثلاثًا وخرجت معها نفسه.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٦) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحَفُّ وَبَشِّرُوهُ يَظُنُّمْ عَلَيْهِ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ﴾ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ، وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم؛ لأنه في الأصل مصدر ضافه /٢/ ١٩٧ب، وكانوا اثني عشر ملكًا. وقيل: تسعة عشرهم جبريل. وقيل ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملك معهما. وجعلهم ضيفًا؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف: حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا في حسبانته كذلك. وإكرامهم: أن إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخذهم امرأته، وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون. قال الله تعالى: ﴿يَبْعَثُ اللَّهُ لَكُمْ سَكِينًا﴾ (٢٦). ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم؛ وإلا فبما في ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذكر ﴿سَلَامًا﴾ مصدر ساد مسد الفعل مستغنى به عنه. وأصله: نسلم عليكم سلامًا، وأنا ﴿سَلَمٌ﴾ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذًا بأدب الله تعالى. وهذا أيضًا من إكرامه لهم. وقرئنا مرفوعين. وقرئ: «سلامًا» قال سلما. والسلام: السلام. وقرئ: سلاما قال سلم ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام. أو أراد: أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم، كما لو أبصر العرب قومًا من الخزر^(١) أو رأى لهم حالًا وشكلًا خلاف حال الناس وشكلهم، أو كان هذا سؤالاً لهم، كأنه قال: أنتم قوم

(١) قوله: «قومًا من الخزر» في الصحاح: الخزر: جيل من الناس. والأخزر: ضيق العين صغيرها، كما أفاده الصحاح. (ع)

منكرونها، فعزفوني من أنتم ﴿فَرَّغَ إِلَيْكَ أَهْلِي﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه؛ ومن أدب المضيف أن يخفي أمره^(١)، وأن يبادره بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يكفه ويعذره. قال قتادة: كان عامة مال نبي الله إبراهيم: البقر ﴿فَجَلَّةٌ يَعْبَلُ سَمِينٌ﴾. والهمزة في ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ للإنكار: أنكروا عليهم ترك الأكل. أو حثهم عليه ﴿فَأَوْحَسَ﴾ فأضمر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه^(٢) فظن أنهم يريدون به سوءًا. وعن ابن عباس: وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد: مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه ﴿يُغْلِمُ عَلَيْكَ﴾ أي يبلغ ويعلم. وعن الحسن: عليم: نبي، والمبشر به إسحاق، وهو أكثر الأقاويل وأصحها؛ لأن الصفة صفة سارة لا هاجر، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلاها. وعن مجاهد: هو إسماعيل ﴿فِي صَرْفٍ﴾ في صيحة، من: صر الجندب، وصر القلم والباب، ومحله النصب على الحال، أي: فجاءت سارة. قال الحسن: أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء، وقيل فأخذت في صرة، كما تقول: أقبل يشتمني. وقيل: صرتها قولها: أوه. وقيل: يا ويلتا وعن عكرمة: رنتها^(٣) ﴿فَصَكَّتْ﴾ فلطمت ببسط يديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب ﴿عَوْرٌ﴾ أنا عجوز، فكيف ألد ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أي إنما نخبرك عن الله، والله قادر على ما تستبعدين. وروي أن جبريل قال لها: انظري إلى سقف بيتك، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مشعة.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِيُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ تُسَوِّمُهُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَرَفِّينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ قَا وَحَدَّثْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيِّنٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَزَكَّيْنَا فِيهَا ءَايَةَ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلاً في بعض الأمور ﴿قَالَ فَا

(١) قال محمود: «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره... إلخ» قال أحمد: معنى حسن، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام: «إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعه معه، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد: يقال روغ اللقمة وسفبلها وسفسغها ومرغها: إذا غمسها فرويت سمًا. قلت: وهو من هذا لمعنى، لأنها تذهب مغفوسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه: غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى، والله أعلم.

(٢) قوله: «لأنهم لم يتحرّموا بطعامه» في الصحاح «الحرمة»: ما لا يحل انتهاكه، وقد تحرم بصحبته أهـ. وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

(٣) قوله: «رنتها» في الصحاح «الرنة» الصوت: يقال: رنت المرأة رنينًا وأرنت أيضًا: صاحت. (ع)

حَبْلُكُمْ أَي: فما شأنكم وما طلبكم ﴿إِنْ قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قوم لوط ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ يريد: السجيل، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر، حتى صار في صلابة الحجارة ﴿سُومَةً﴾ معلمة، من السومة، وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به. وقيل: أعلمت بأنها من حجارة العذاب. وقيل: بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين، كما سماهم عادين، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم: حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم. الضمير في ﴿فِيهَا﴾ للقرية، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة. وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد، وأنهما صفتا مدح. قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله ﴿آيَةً﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج: هي صخر منضود فيها. وقيل: ماء أسود متتن.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿فَتَوَكَّنَ يَرْكُوبَهُ﴾ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾

فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ أو على قوله: ﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ على معنى: وجعلنا في موسى آية/٢/١٩٨؛ كقوله [من الرجز]:

عَلَفْنَاهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا (١)

﴿فَتَوَكَّنَ يَرْكُوبَهُ﴾ فازور، وأعرض، كقوله تعالى: ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [فصلت: ٥١] وقيل: فتولى بما كان يتقوى به من جنوده وملكه. وقرئ: «بركنه»، بضم الكاف ﴿وَقَالَ سِحْرٌ﴾ أي هو ساحر ﴿مُؤْمِنٌ﴾ أت بما يلام عليه من كفره وعنده، والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه. فإن قلت: كيف وصف نبي الله بونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى: ﴿وَاللَّعْنَةُ الْمَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٢]؟ قلت: موجبات اللوم تختلف على حسب اختلافهما تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وَعَصَا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١] لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ

كَالْرَمِيمِ ﴿٤٢﴾

﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إفاح شجر، وهي ريح الهلاك. واختلف

فيها: فعن علي رضي الله عنه: النكباء (١٥٠١). وعن ابن عباس: الدبور. وعن ابن المسيب: الجنوب. الرميم (١٥٠٢): كل ما رم أي بلي وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

﴿وَفِي نُحُودٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعَقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ (٤٥)

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: «تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ: «الصَّعَقَةُ» وهي المَرَّة، من مصدر صعقتهم الصاعقة: والصاعقة النازلة نفسها ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ كانت نهارًا يعاينونها. وروي أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرَّتْهم ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَمْسَبُوا فِي دَارِهِمْ حَنِينًا﴾ [العنكبوت: ٣٧] وقيل: هو من قولهم: ما يقوم به، إذا عجز من دفعه ﴿سُفْعِينَ﴾ ممتنعين من العذاب.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٤٦)

﴿وَقَوْمٌ﴾ قرئ: بالجر على معنى: وفي قوم نوح وتقويه قراءة عبد الله: وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح؛ لأن ما قبله يدل عليه. أو واذكر قوم نوح.

﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيُّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْتَهَا فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ﴾ (٤٨)

﴿بِأَيُّدٍ﴾ بقوة. والأيد والآد. القوة. وقد آد يشيد وهو أيد ﴿وَنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون، من الوسع وهو الطاقة. والموسع: القوي على الإنفاق. وعن الحسن: لموسعون الرزق بالمطر. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة ﴿فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ﴾ فنعم الماهدون نحن.

﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩)

﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل شيء من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرًا وأنثى. وعن

١٥٠١ - عزاه السيوطي في الدر المنثور (١٣٩/٦) للفرجاني، وابن المنذر.

١٥٠٢ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٦٩/١١) (٣٢٢٦)، وأبو الشيخ في العظمة (١٣٣٩/٤) (٨٤٦) كلاهما من طريق ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن سعيد بن المسيب - رحمه الله تعالى - قال: «الريح العقيم الجنوب».

وعزاه السيوطي في الدر (١٣٩/٦) لابن المنذر، وأخرجه أيضًا الطبري (٤٦٩/١١) (٣٢٢٧) من قول الحارث بن عبد الرحمن.

الحسن: السماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة؛ فعدد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبده.

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى طاعته وثوابه^(١) من معصيته وعقابه، ووحدوه ولا تشركوا به شيئاً، وكثر قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ عند الأمر بالطاعة والنهي عن الشرك، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أن العمل لا ينفع إلا مع الإيمان، وأنه لا يفوز عند الله إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] والمعنى: قل يا محمد: فقرُّوا إلى الله.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ﴾ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر، أي مثل ذلك، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول ﷺ وتسميته ساحراً ومجنوناً، ثم فسر ما أجمل بقوله ﴿مَا أَتَى﴾ ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة يأتي؛ لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل: لم يأت، لكان صحيحاً، على معنى: مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الضمير للقول، يعنى: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً متفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ أي لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، والطغيان هو الحامل عليه.

(١) قال محمود: «معنى فقرُّوا إلى الله، أي: إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه... إلخ» قال أحمد: حمل الآية ما لم تحمله، لأنه لا يكاد يخلو سورة حتى يدس في تفسيرها بيده إلى معتقده، فدرس ههنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار، ولا تحتل الآية لما ذكر؛ فإن العناية في قوله: (فقرُّوا إلى الله) الفرار إلى عبادة الله فتوعد من لم يعبد الله، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة للدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل، لا كما قال الزمخشري: المأمور؛ في الأول الطاعة الموظفة بعد الإيمان، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود. وعلى هذا لا يكون تكراراً على اختلاف الوعدين، فهو أولى، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها، لينتم الاستدلال بها على معتقده الفاسد، نعوذ بالله من ذلك.

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ٥٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ٥٥﴾

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كزرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا، وعرفت عنهم العناد واللجاج، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام الله ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تؤثر في الذين عرف الله منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيماناً. وروي أنه لما نزلت ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ﴾ حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه، ورأوا أَنَّ الوحي قد انقطع وَأَنَّ العذاب قد حضر، فَأُنْزِلَ اللهُ. وذكر (١٥٠٣).

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾

أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها^(١).
فإن قلت: لو كان مريدًا^(٢) للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادًا؟ قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه

١٥٠٣ - أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤٧٥/١١) (٣٢٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧٦ - ٢٧٧) (١٧٥٠) كلاهما من طريق إسماعيل بن علية قال: أخبرنا أيوب عن مجاهد قال: خرج علي معتجزاً بيرد، مشتملاً بخميصة فقال: لما نزلت: «فتول عنهم فما أنت بملوم» أحنزنا ذلك....

وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه، وأحمد بن منيع، والهيثم بن كليب في أسانيدهم، وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة كما في الدر المنثور للسيوطي (١٤١/٦).

(١) قال محمود: «إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها... إلخ» قال أحمد: من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهراً موافق لمعتقده نزل على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالاً، وإيراد معتقده جواباً؛ فكذلك صنع ههنا، فنقول: السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره؛ فإنه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سقت لبيان عظمتهم عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فإن عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أزراقهم. والله تعالى لا يطلب من عباده رزقاً ولا إطعاماً، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقاً أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سقت، وبه نطق، ولكن الهوى يعمي ويصم؛ فحاصله: وما خلقت الجن والإنس إلا لأدعوهن إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فإنه وافق معتقدهم وبالله التوفيق.

(٢) قوله: «لو كان مريدًا للعبادة» قد يقال: لا يلزم من خلقهم للعبادة أن يريدوا من جميعهم. وقوله: «مع كونه مريدًا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر. وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده الله كان، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد. وتحقيقه في علم التوحيد.

(ع)

مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدًا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.

﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ / ٢ / ١٩٨ ب الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

يريد: أن شأني مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم، فإن ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم وأرزاقهم، فإما مجهز في تجارة ليفي ربحاً. أو مرتب في فلاحه ليفتل أرضاً. أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته. أو محتطب. أو طابخ. أو خابز، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق، فأما مالك ملك العبيد وقال لهم: اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم، وأنا غني عنكم وعن مرافقكم، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي، فما هو إلا أنا وحدي ﴿الْمَتِينُ﴾ الشديد قرئ بالرفع صفة لذو، وبالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار والمعنى في وصفه بالقوة والمثانة أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ: «الرازق» وفي قراءة النبي ﷺ: إني أنا الرازق.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٦٠﴾

الذنوب: الدلو العظيمة، وهذا تمثيل، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب. قال [من الرجز]:
لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ فَإِنْ أَبِيئْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ^(١)

(١) إنما إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب
فإن أبي كان له القليب

الشريب من يشرب معك. والذنوب: الدلو الممتلئة ماء، والنصيب من الماء. والذنابة: ميل الماء. والقليب البئر لقلب ثراه، يقول: إنا كرام نشاطر شربنا، فإن لم يرض بالمناوبة أعطيناه الجميع. وروي بدل المصراعين الآخرين:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيئتم فلنا القليب

ولعل الصواب: فإن أبي أو فإن أبيئتم فلنا؛ لثلا ينكر البيت. والمعنى: نقول لمن يشرب معنا ذلك، فقيه دلالة على الشجاعة والغلبة. والشريب كالعشير: يطلق على الواحد والمتعدد.

ينظر: لسان العرب (ذنوب)، وتهذيب اللغة ٤٣٩/١٤، والمخصص ١٨/١٧، وكتاب العين ٨/١٩٠، وجمهرة اللغة ص ٣٠٦ وتاج العروس (ذنوب).

ولما قال عمرو بن شاس [من الطويل]:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ فَحَقُّ لِسَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُّؤُوبٌ^(١)
قال الملك: نعم وأذنبه. والمعنى: فإن الذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة: سجلا من عذاب الله مثل سجل أصحابهم ﴿مِنْ يَوْمِهِمْ﴾ من يوم القيامة. وقيل: من يوم بدر.

عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة الذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا (١٥٠٤).

١٥٠٤ - تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب - رضي الله عنه - . انتهى.

(١) وأنت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمى لهن ندوب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لسأس من ندادك ذنوب

لسأس أخي علقمة بن عبدة، يخاطب الحرث بن أبي شمر الغساني وكان أسيراً عنده. والندوب - في الأصل: آثار الجراح بعد برئها. ومن بياينة، أي: آثاره التي هي البؤس والنعمى. أو ابتدائية، أي: الناشئة منهما، لهن بقايا في عدوه. والبؤس: الشدة. والنعمى: الرخاء. والخابط: الذي يخط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص، ثم قيل لكل طالب: خابط ومخبط. ويجوز أن يكون من قولهم: خطب الشجرة؛ ليسقط ورقها للإبل والغنم فاستعار في نفسه الورق للأموال، والخطب تخيل والمعنى أنه شجاع كريم، بأسه أو هن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وسأس من وضع الظاهر موضع المضر لإظهار المسكنة والاستعطاف. وقيل: إن القائل عمرو بن شأس، فوضع الظاهر في موضعه. ولما سمع الحرث ذلك قال: نعم وأذنبته، وكسا شأساً ومن معه، وأركبهم وأطلقهم، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب: وهو الدلو الممتلئة. ينظر: ديوانه ص ٤٨، وشرح أبيات سيويه ٤٠٠/٢، وشرح المفصل ٤٨/٥، ١٥١/١٠، والكتاب ٤/٤٧١، ولسان العرب (جنب)، (شأس)، (خطب)، ومجالس ثعلب ص ٩٧ وبلا نسبة في سز صناعة الإعراب ص ٢١٩، وشرح المفصل ٤٨/١٠، والممتع في التصريف ص ٣٦١، والمنصف ٣٣٢/٢.